11me Année No. 532

Lundi - 13 - 9 - 1943

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ ص في مصر والسودان

١٢٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ١٥ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٥٣٢ « القاهرة في يوم الإثنين ١٣ رمضان سنة ١٣٦٢ — الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ » السنة الحادية عشرة

الفهـــرس

صفحة			
٧٢١	آباؤنا وأمهاتنا وأبناؤنا ...	: الدكتور زكي مبارك	...
٧٢٥	حكاية الوفد الكسروى	: لأستاذ جليل	...
٧٢٧	نشأة الدراما الانجليزية ...	: الأستاذ دريني خشبة ...	...
٧٣٠	اللغة العربية	: الأستاذ محمد عرفة ...	...
٧٣٢	لافونتين	: الأستاذ محمد حسني عبد الله	...
٧٣٤	أعداء النساء	: السيدة وداد سكاكيني	...
٧٣٧	موكب الحسن .. [قصيدة]	: الأديب أحمد أحمد العجمي	...
٧٣٧	من شعر الأطفال «	: الأستاذ علي متولي صلاح	...
٧٣٨	كلمة بريئة	: الأستاذ أحمد فتحي القاضي	...
٧٣٨	الأعراب	: الأديب إحسان عبد القدوس	
٧٣٩	من رسائل الرافعي : وحي القرآن باللفظ . القراءات ..	الأستاذ محمود أبو رية	...
٧٤٠	تنبيه وتنبيه	: الأستاذ محمود عزت عرفة	...
٧٤٠	دراسات عن مقدمة ابن خلدون :	... ...	...

الى الأستاذ الزيات

آباؤنا وأمهاتنا وأبناؤنا

للدكتور زكي مبارك

بعد منتصف الليل من هذا المساء (٢٩/٨/٤٣) وسوس الهتاف من جريدة الأهرام :

— ألو ، ألو !

— خير ، من المتكلم ؟

— صالح البهنساوى ، هل أزعجتُك بالحديث في مثل هذا الوقت ؟

— لم تزعجني ، ويسرني أن أسمع صوتك ، فما عندك من الأخبار ؟

— عندنا خبر يقول : إن والدة الأستاذ الزيات ماتت ، وأردنا أن نعرف منك مبلغ هذا الخبر من الصحة قبل أن ننشره في الوفيات

— لم أسمع هذا الخبر إلا منك ، فلا موجب لنشره قبل التثبت

ثم رجعت إلى نفسي أسأل عن مواساة الأصدقاء بعضهم لبعض ، فقد كان يجب أن أكون أول من يعرف هذا الخبر إن كان صحيحاً ، لأحضر دفن السيدة التي أنجبت هذا الصديق ، ولأشترك في مواساته مع الأقربين

وحانت مني التفاتة إلى الماضي يوم ماتت أمي ؛ فقد طلبت بإلحاح أن تراني قبل أن تموت ، وكان أبي يسوّف لأنه يعرف أني أؤدي أول امتحان في الجامعة المصرية ، وكانت النتيجة أن تدفن وأنا غائب ، وأن تبقى الحسرة على أن لم أحمل نعشها على كتفي

هل كان أبي يعرف أن توديع أمي في لحظاتها الأخيرة أحبّ إليّ من جميع المغانم العلمية ؟

لو أنه عرف لأعفاني من لوعة سأعاني نيرانها إلى آخر أيامي

وقد لطف الله بأمي فماتت قبل أن يموت أخي سيد بنحو سنتين ، فلم تشهد فجيعة الدار في موت فتى لم ينتصر عليه قاهر غير الموت

دخلت على أخي سيد وهو في الحشرجة فنهض من فراشه ليقبّل يدي ، ثم أسلم روحه إلى باريء الأرواح

وكانت الفجيعة الأخيرة هي موت أبي ، ولكنها فجيعة نفعتني أجزل النفع ، فقد هوّنت الدنيا في نظري حين صورتها بالصورة الحقيقية ، صورة الصحراء التي لا تضمن لسكانها من الضراغم غير الفناء

وهل تعزيت عن أبي وقد طال الفراق ؟

أريد أن أخفف لوعتي فأذكر أنه عاش ما عاش وهو يعتقد أنني أوفى الأبناء : فما راجعته في كلمة ، ولا رفضت له نصيحة ، ولا استعجزت المخالفة عن أمره في شأن من الشؤون

كنت ابناً باراً بأبيه ، وكان يرى بأبي يتمثل في صورة لم تخْلُ عليه ، فقد سمعت أنه تحدث بها إلى بعض الأصدقاء ، وهي أني أخفي عنه همومي وأحزاني ، فما بات ليلة وهو مغموم بسببي ، ولا وصل إليه حزن من طريقي ، ولا عرف أن الأبناء قد يكدرون حياة الآباء

والحق أني كنت أراعي معنًى هو غاية في الخفاء ، ومراعاة هذا المعنى كانت أعظم عمل أديته في حياتي ، فما ذلك المعنى الدقيق ؟

كانت الأقدار قضت بأن تمزّق أملاك جدّي كل ممزّق ، فلا يبقى منها غير أوشال ، وكان أبي آخر العنقود ، فلم تكن له مندوحة من أن يجاهد ليستبقي ومضات من الذهب المضاع

كان أعمامي جبابرة وكانوا قساةً وطغاة ، وكانوا أيضاً منجبين ، فلا يعشى الرجل منهم إلا وهو موصول الجناح بأبناء أشدّاء ، فماذا يملك أبي في مقاومة أعمامي ؟

لقد ناضلهم وحاربهم ، واستطاع أن يستخلص بضعة فدادين يعيش من ريعها عيش الكفاف ، إلى أن يجود الله بالغِنى حين يشاء

وكانت دار أبي هي الدار التي مات فيها جدي ، لأن جدتي كانت آخر زوجاته الغاليات ، وفي تلك الدار نشأت ، فماذا رأيت ؟

كنا نستيقظ على زلزال يتمثل في سقوط إحدى القاعات ، فيخفّ إلينا الجار الأقرب وهو عمي الشيخ سيد أحمد وبيده فانوس ومعه أبناؤه ليعاونوا على رفع الأنقاض

كانت أخطر فاجعة تهون على أبي ما دامت بعيدة عني

هل أستطيع تأدية واجب الوفاء لأبي ، ولو نظمت في رثائه ألف قصيد ؟

وفي إحدى العصريات دخلت الدار فوجدت أمي تخرج وهي مذعورة ، فماذا وقع ؟

كانت أمي رأت ثعباناً في أبراج الحمام فنزته بالنار ليختنق ، فامتدت النار إلى سقوف الدار فحوّلتها إلى نيران

وفي لحظة أو لحظتين بدت شهامة أهل سنتريس

لقد تجمعوا من كل جانب رجالاً ونساء ليخمدوا تلك النيران بالماء والتراب

وماذا يملك أولئك الأوفياء ؟

لم يكن في بلدنا غير آبار معدودات ، فكان من الصعب إخماد نيران لا يخمدها غير البحر المحيط ، وكانت العاقبة أن يحترق البيت من جميع الجوانب وأن يمسي بلا سقوف ، مع قسوة الشتاء

ونظر أبي فرآني بعافية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم جلس على مصطبة المضيفة وهو في غاية من الاطمئنان

وفي أعقاب السهرة الجيّاشة بكلمات المواساة سمعنا ضجيجاً يخطر في البال في مثل تلك الحال ، فما ذلك الضجيج ؟

رأينا جماعة العيسوية تغزو دارنا بركائب محملة بأقوات تكفينا عشر سنين ، فوقف أبي وقال : إن باب الدار لم يحترق ، وسأغلقه إن لم ترجعوا مشكورين

كان مقام أبي في تلك الليلة مقاماً رهيباً ، فقد أتت النيران

على جميع الأشياء ، وتركتنا بلا قوت ، وإن لم أذكر أنى نمت فى تلك الليلة بلا عشاء

ما الذى كان يمنع من أن يَقبل أبى مواساة أعمامى ؟

منعه الخوف من أن يمنّ عليه أخٌ أو صديق فى الأيام المقبلات

كان أعمامى كراماً برغم ما أرادت الأقدار فى تحيّف ما ورثوا من الثراء العريض ، ولكن أبى رفض معروف إخوة سيحاربهم أو سيحاربونه بعد يوم أو يومين

تمثّلتْ لى متاعب أبى فى حياته حين شببت عن الطوق ، فقررت إعفاءه من التعب إلى آخر الأيام من حياته الغالية

أردت أن أكون لأبى ابناً وأخاً وصديقاً فكنت ، وقد محوت عن صدر أبى تلك السطور السُّود ، سطور الشقاء بالأهل والأقرباء

هل عرف أبى أن له ابناً تمتحنه الحياة ؟

لقد أخفيت همومى عن أبى فكانت تصل إليه وهى أساطير ، وكان لا يتوهم أن كيد الدنيا يصل إلى من يكون فى مثل عنفوانى

وأنا الرجل الذى عرفه أبى ، فلتحاربنى الدنيا الغادرة إن كانت تطيق

لم أنس يوماً أن أبى تعب فى شبابه حتى شبع من التعب ، ولم أنس لحظة أن تكدير كهولته بسببى قد يكون إثماً موبقاً يكدر ما أرجو لحياتى من صفاء ، ولهذا المعنى حرصت على أن يرانى باسماً فى كل وقت ، وأن يرانى غنياً عن الناس فى جميع الأحايين ، وهل يفتقر المؤمن إلى الناس ؟

لم تكن الدنيا سمحت بأن تخلو حياتى من متاعب ، ومع هذا أخفيت عنه جميع آلامى ، فلم يتصورنى إلا رجلاً خلَتْ حياته من المصاعب والأهوال

كان سلوكى مع أبى سلوكاً هو الصورة المنشودة لأدب النفس ، ولعل الله يتفضل فيتقبل دعواته الطيبات وهو يعانى مرض الموت ، فما مات أب راضياً عن ابنه كما مات أبى وهو راضٍ عنى

وهنا أتذكر أشياء تعدّ من الغرائب ، أشياء متصلة بحياة أمى ، فما تلك الأشياء ؟

كانت أمى تفرح بالمرض أشد الفرح ، لأنها كانت تؤمن بأن دعاء المرضى دعاء مستجاب ، فكانت تقضى ليالىها الأليمة فى دعاء الله بأن يجعلنى من الموفقين . كانت تدعو الله وهى توقن أنه يسمع ويجيب ، ولم يخطر فى بالها أبداً شىء مما يخطر فى بال أهل الارتياب

كانت أمى سيدة مؤمنة ، وكان إيمانها موروثاً عن أمها وأبيها ، وكانا زوجين قانتين لا يعرفان غير فاطر الأرض والسماء

ومع أن المألوف فى كل أرض أن الأم لا تستريح كثيراً إلى زوجة ابنها ، فقد كانت أمى تحبنى فى زوجتى ، وتصفها بأجمل الأوصاف ، وتخصها بكثير من الدعوات ، بحيث عُدّ سلوكها من أندر ما يقع فى حياة النساء

وكذلك كان حال جدى لأمى ، فقد كان حين يزور دارنا بعد صلاة العيد يبدأ بالسؤال عن زوجات أبى ، سؤال الوفاء لا سؤال الرياء ، ثم يدعو الله أن يديم عليهن نعمة العافية والقبول

أما أمر أبى فى تربيتى ، فكان عجباً من العجب ، كان لا يتناول طعاماً بدون أن أشاركه فيه ، ولو كان طعاماً أعدته له إحدى الزوجات المحظيات

كنت أدخل الدار مع الليل ، والشّواء يفوح والنوم فى جفونى ، فآوى إلى مضجعى وأنا أرجو أن يعفينى أبى من مشاركته فى عشائه المرموق ، ولكنه لم يكن يتناول طعاماً بدون حضورى ولو كان تحفة عروس

من الذى أوحى إلى أبى ما غاب عن كبار المربين ؟

كان أهلى يقولون إن الطفل يحتاج إلى تأسيس ، وكانوا يرون أن الطفل المؤسَّس يعيش فى قوة إلى آماد طوال

ثم دارت الأيام واستقللت عن أبى كل الاستقلال ، فقد أكرمه الله بالعيش إلى أن يرانى رجلاً له أهل وأبناء وأملاك ، ومع هذا كان يرانى ضيفه حين أزور سنتريس ، ويبالغ فى الكرم فلا يتركنى لحسن الفهم فى رعاية ضيوفى ، وإنما يتقدم فيكرمهم بأسلوبه الجميل ، أسلوب الرجل الفطور على السخاء الفضفاض

ولن أنسى أنه كان يناجى المسيو دى كومنين مناجاة الرفيق للرفيق ، مع أن لغة التفاهم غير موجودة بأى شكل ، فكان

من ذلك دليل على أن الألسنة أقل إفصاحاً من القلوب

كان لى أب وكانت لى أم ، وأنا اليوم يتيمٌ كهل ، واليتيم الكهل أعرف باليُتم ، كما قال أخونا الأستاذ محمد الهراوى ، طيّب الله ثراه !

أما بعد فأنا لا أوصى باجترار الأحزان ، ولا أدعو إلى أن نطيل البكاء على آبائنا وأمهاتنا ، فذلك يؤذيهم فى عالم الأرواح وإنما هى لوعة نزجيها كارهين لا طائعين ، وهى على قسوتها دون ما يجب فى تسجيل الوفاء

ثم ماذا ؟ ثم يكون الحديث عما نفقد من أبنائنا ، وأنا ذقت مرارة الثكل مرات ، إلى أن لطف الله فأعفانى من ذلك العناء وسيتفضل جل شأنه فيرحم جفونى من دموع الثاكلين ، لأنه أرحم الراحمين

ومن واجبي نحو قرائى أن أدلهم على المذهب الذى سلكته فى ذلك الجحيم :

حين ذقت الثكل أول مرة رأيت له طعما متفرداً بين طعوم الأحزان ، رأيته يقلقل أضرامى ويكاد ينقلها من مكان إلى مكان ، ورأيت تعزية المعزين تزيد أحزانى ، فقررت أن لا يقام للطفل الميت مأتم ولا عزاء ، وقررت أن لا أسمع بكاء أمه عليه ، وأن لا يُذكر اسمه فى البيت ، وأن يمضى إلى من وهبه ثم استرده بلا عويل ولا صياح

كنت أقول : هو لنا عند الله ، فلنتركه ذخيرة تنفعنا يوم الحساب ، إن كنا مؤمنين

والواقع أن هذه أعظم شجاعة بدت منى فى حياتى ، فالطفل لا يموت إلا بعد أن يتجلى تجلياً هو غاية فى الفتون ، فتسكون حركاته وسكناته من الغرائب والعجائب ، ويكون تحفة طريفة تحول البيت إلى فردوس من أجل الفراديس ، بحيث يقال فى وصفه إنه كان ابن موت ، وهذه عبارة مألوفة عند أهل الريف ، وهى غاية فى الصدق

وبقليل من التأمل نرى أن الطفل الذى يموت بعد سنة يكون استوفى من الحياة سنوات وسنوات ، لأنه فى عمره القصير يستوفى من حظوظ دنياه فى المرح واللعب والابتهاج ما لا يستوفيه كبار المعمرين . وهنا تكون الفتنة الدامية ، فذلك الطفل يعد أهله وعوداً لا تخطر فى البال ، فهو فى إشاراته وعباراته يؤكد بأنْ سيكون أعظم العظماء فى القديم والحديث

وفى أقصر من لمح البصر يختضره الموت ، فتبقى له بوارق تذيب لفائف القلوب

ماذا أصنع والأطفال الذين ثكلتهم كانوا كذلك ؟

قدرت أنهم عاشوا حتى شبعوا من العيش ، والعيش تعبٌ فليستريحوا آمنين

دفنت بيدى أطفالاً كانوا أعز علىّ من نفسى ، ولكنى لم أبك عليهم كما بكيت على أمى وأخى وأبى ، لأنهم لا يطالبوننى بالوفاء ، فقد اختارهم الله إلى جواره قبل أن يعرفوا الفرق بين البر والعقوق

وما حاجة الأطفال إلى البكاء ؟

ألا يكفى أن الله أنجاهم من مكاره العيش ، فى دنيا أتعبت الأنبياء ؟

الدمع على الطفل الذاهب أغزر من الدمع على الكهل الذاهب ، فما الذى فاتهم من حظوظ البكاء ؟

بهذه السياسة فرضتُ على زوجتى أن تنسى الأطفال الذين فقدناهم فى مصر الجديدة وفى سنتريس ، فاكتفت واكتفيت بالشياطين الذين عاشوا ، وهم أبناء لم تمنعهم الشيطنة من أن يكونوا غاية فى أدب النفس وصفاء الروح

إذا راعى الابن واجبه نحو أبيه ، فما يضره إن نسى الواجب فى معاملة جميع الناس ؟

أنا لم أفعل خيراً فى حياتى أفضل من الأدب فى معاملة أبى وأمي ، وقد جازانى الله فجعلنى فى عصمة من دسائس السفهاء

الحجر الأول فى بناء الوطن هو الأسرة ، وأبنائى لا يحبونى متفضلين ، وإنما يرون رجلاً يدبر لهم منافع لن يحتاج إليها قبل أن يموت ، ولو عاش عمر نوح ... وهل أعيش إلى أن أنتفع بما أدّبر لأبنائى ؟

ليت أبنائى يتأدبون بأدبى !

أنا أرى أن حيوية الرجل فوق الحدود ، والسر كله فى طاعة الله ، الطاعة التى يعرفها أصحاب العقول ، الطاعة التى تتمثل فى العمل الموصول بصدق وإخلاص

كونوا يا أبنائى مثل البحر ، فهو قد يغضب فى كل وقت ، ولكن كل قطرة من قطراته تشتمل على حيوات عظيمات

واذكروا دائماً أنى لم أنل رضا الله بالجبان ، فقد نلت رضاه بكفاح يؤيد كرمه فى صحة بنيانى ، وأنا بحمد الله غاية فى صحة البنيان .

زكى مبارك